المحاضرة الأولى: اكتساب المعارف في ضوء علم النفس المعرفي

تمهيد:

السيكولوجيا الحديثة، وفي ضوء البراديغم الذي استندت إليه منذ نشأتها، قامت بتحويل جوهري في موضوعها ونظرياتها ومسارها التطوري. بدأ هذا التحول نتيجة للثورة المعرفية التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية في الستينات من القرن الماضي وانتشرت في أوروبا في أوائل الثمانينات. هذا التحول أدى إلى انقطاع جذري مع البراديغم السلوكي السابق الذي كشفت الانتقادات الداخلية عن قصوره، وأثر عليه تقدم العلوم المتصلة مثل الفلسفة العلوم العصبية وعلوم المعلومات وعلم اللسانيات من جهة أخرى.

1_ موضوع علم النفس المعرفي

1_ علم النفس المعرفي: فهم الذكاء وعمليات المعالجة المعرفية

يُركز موضوع علم النفس المعرفي على فهم الذكاء البشري وكيفية عمله. يسعى هذا المجال أيضًا لفهم العمليات العقلية والتفكيرية التي تلعب دورًا حاسمًا في معالجة المعلومات. يشمل ذلك عمليات تحويل المدخلات الحسية إلى معلومات مفهومة (تشفيرها) وكيفية استيعابها وتخزينها وتنظيمها والاستفادة منها في الأنشطة اليومية.

علاوةً على ذلك، يتناول علم النفس المعرفي كيف يمكن للأفراد اكتساب المعرفة من خلال تفاعلهم مع البيئة وكيف يبنون مخططاتهم العقلية لفهم العالم من حولهم. بالإضافة إلى ذلك، يركز على تحليل عمليات معالجة المعلومات مثل الانتباه والتعرف والتذكر واستخدام اللغة وحل المشكلات وتطبيق المنطق.

علم النفس المعرفي يهدف إلى استكشاف كيفية تفاعل الأفراد مع المعرفة بدءًا من استقبال المعلومات وصولاً إلى استجاباتهم لها، وكيف يؤثر هذا التفاعل على سلوكهم واستجابتهم للعالم من حولهم.

يتجلى جوهر السيكولوجيا المعرفية في رؤيتها للفرد، وبشكل خاص ذهنه، على أنه نظام لمعالجة المعلومات. هذا النهج يفترض أن الأنشطة الذهنية مثل الإدراك والذاكرة واللغة والانتباه

وعمليات التعلم تمر بعمليات معقدة تشبه معالجة المعلومات في الكمبيوتر. على سبيل المثال، فيمكن تصوير عملية الذاكرة كنظام لتخزين المعلومات واسترجاعها، حيث يتم تحويل المعلومات من الذاكرة القصيرة الأمد إلى الذاكرة الطويلة الأمد بناءً على الحاجة والتكرار. هذا النموذج يفسر كيفية تخزين المعلومات والوصول إليها عند الحاجة.

بالإضافة إلى ذلك، يعتبر علم النفس المعرفي اللغة أداة أساسية لنقل وتبادل المعلومات بين الأفراد. يتم دراسة كيفية استخدام اللغة للتفكير والتعبير عن الأفكار والتواصل مع الآخرين، وكيف يتم تمثيل الكلمات والجمل في الذهن واستخدامها في التفاعل اليومي.

بهذا النهج، يسعى علم النفس المعرفي لفهم كيف يتفاعل الإنسان مع العالم من حوله من خلال معالجة المعلومات وكيف يتطور هذا التفاعل مع مرور الزمن.

تُعتبر السيكولوجيا المعرفية كتطور حديث في عالم علم النفس، حيث تركز بشكل أساسي على دراسة العمليات الذهنية والإدراكية التي تحدث داخل عقول الأفراد. يهمنا أن نشير هنا إلى أن السيكولوجيات السابقة، على مر العصور، كانت دائمًا تسعى إلى استكشاف الظواهر الذهنية مثل الروح والشعور والإحساس والذاكرة، وذلك كجزء من مسعاها لفهم العقل البشري وسلوكه.

ومن الجدير بالذكر أن المرحلة السلوكية في تاريخ علم النفس حرمت على نفسها مقاربة ما اصطلحت عليه "العلبة السوداء"، وذلك بسبب غياب نظرية مناسبة وصالحة لتأطير هذه الظواهر الذهنية. وبينما كانت السيكولوجيات السابقة تُظهر اهتمامها بالظواهر الذهنية، إلا أنها لم تتمكن من تطوير أسس نظرية قوية لدراستها.

على الجانب الآخر، نجح علم النفس المعرفي في مقاربة العلبة السوداء واستكشاف العمليات الذهنية التي تحدث في العقل البشري. ويعود الفضل في ذلك إلى نموذج معالجة المعلومات الذي يستند إلى النظرية الرياضية للتواصل لصاحبها Weaver و Shanon التي أُطلقت في عام 1945، والتي تطبقت بنجاح على السيرورات السيكولوجية على يد الباحثين Broadbent (1958)وNewel وSimon (1974). هذا النموذج أتاح فهمًا أعمق لكيفية تحويل المعلومات ومعالجتها داخل العقل البشري.

باختصار، السيكولوجيا المعرفية تمثل تطورًا هامًا في مجال علم النفس، حيث أعطت الأهمية اللائقة للعمليات الداخلية وسمحت بفهم أعمق للعقل البشري وكيفية تفاعله مع العالم المحيط.

ظلت السيكولوجية المعرفية وفية للمنهج التجريبي، ومازالت تحمل مسعى استنباطياً مشتقاً من العلوم المادية. لكنها أيضًا أضافت عناصرًا مهمة لتوسيع نطاق أبحاثها، حيث استخدمت التحليل الكيفي بوسائل البروتوكولات الفردية وقامت بالنمذجة والمحاكاة المعلوماتية. هذه الإضافات سمحت لها بالتحقق بشكل أوسع من الظواهر المدروسة.

يعود هذا التطور إلى العمل البحثي لعدد من الباحثين البارزين في هذا المجال، منهم من عمل على تقديم النماذج والنظريات والأساليب التي أثرت بشكل كبير على السيكولوجية المعرفية. من هؤلاء الباحثين، نذكر النظرية الكمية للمعلومات التي قدمها Claude Shannon في عام 1948 والتي كانت أساسًا لفهم كيفية تحويل المعلومات وانتقالها. أيضًا، يُعزى الفضل للباحث Herbert Simonالذي أسهم بشكل كبير في تطوير نماذج المعالجة المعلوماتية.

بجانب التطور في النماذج النظرية، استفادت السيكولوجية المعرفية من التقنيات الحديثة في مجال المحاكاة والنمذجة بواسطة الحاسوب، مما ساهم في تطبيق تلك النظريات على نطاق واسع والتحقق من صحتها. هذه الجهود المشتركة للباحثين في ميدان السيكولوجية المعرفية أتاحت لها فهمًا أعمق وأدق لعمليات الذهن البشري ومساهمة أكبر في تطور هذا المجال".

تتعامل الأنشطة الذهنية بمجموعها، بدءًا من الإحساس البسيط وصولاً إلى التفكير الأكثر تجريدًا، بطبيعتها مع أمور معرفية. تُستخدم هذه الأنشطة من قِبَل الأفراد لبناء تمثلاتهم الخاصة، ومن خلالها يتعرفون على أنفسهم وعلى العالم الخارجي، وتتأسس على هذه الأنشطة أيضًا أسس أفعالهم وتفاعلاتهم.

تتعلق هذه الأنشطة بمحورين أساسيين: الاكتساب والاستخدام المعرفي للمعلومات. يُظهر هذا التفاعل بين اكتساب المعرفة واستخدامها كيف يلعب العقل البشري دورًا حاسمًا في فهم العالم والتفاعل معه.

هذا ما يجعل السيكولوجيا تُعتبر علمًا معرفيًا، حيث أنها تندرج ضمن مجال العلوم المعرفية نظرًا لاهتمامها بالأنشطة الذهنية والمعرفية. تُشكل هذه المعرفة النظرية لنظام معالجة المعلومات نهجًا جديدًا لفهم الظواهر السيكولوجية وتفسيرها بشكل أعمق وأشمل".

رغم انتشار السيكولوجيا المعرفية في معظم مجالات علم النفس، مثل علم النفس النمو، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس العصبي، وعلم النفس اللغوي، إلا أنها لم تشمل الميدان المرضي إلا في وقت متأخر نسبيًا، وذلك لأسبابين رئيسيتين.

أولًا، انبنت السيكولوجيا المعرفية على نموذج الاشتغال المعرفي السوي للإنسان العادي، وهو نموذج يعكس كيفية تعامل الأفراد الأصحاء مع العمليات الذهنية وكيفية معالجتهم للمعلومات. وهذا النموذج لم يكن بالضرورة مناسبًا لفهم التحديات التي تواجه الأفراد الذين يعانون من اضطرابات نفسية.

ثانيًا، أهملت المقاربة المعرفية للنواحي العاطفية والوجدانية. فقد تجاهلت تمامًا الانفعالات التي تشكل جزءًا أساسيًا من تجربة الإنسان. هذا الإهمال دفع علماء النفس الاكلينيكيين إلى الشك في صلاحية النموذج المعرفي لفهم الاضطرابات الذهنية وتفسيرها.

لكن على الرغم من هذه الشكوك الأولية، تبين لاحقًا أن السيكولوجيا المعرفية قادرة على توضيح وفهم الاضطرابات الذهنية بشكل أفضل. فقد أصبح من الواضح أن هذه المقاربة ليست فقط ضرورية بل أيضًا أساسية لتطوير علم النفس المرضي. وذلك لأنها تتجاوز حدود المقاربات السابقة مثل السلوكية والتحليل النفسي وتوفر إطارًا أكثر شمولًا لفهم ومعالجة الاضطرابات الذهنية.

النمذجة هي عملية إنشاء نموذج أو تمثيل تقريبي لظاهرة أو نظام معين بحيث يمكن دراسته وفهمه بشكل أفضل. في السياق العام، يمكن تعريف النمذجة على أنها عملية تطوير نموذج مبسط أو تمثيل هيكلي لظاهرة معقدة بحيث يمكن استخدامه لتحليل أو تفسير هذه الظاهرة بشكل أفضل وأدق.

النماذج تأتي بأشكال متنوعة، ويمكن أن تكون رياضية، حيث تستند إلى المعادلات والأرقام، أو تكون تمثيلات رسومية تعتمد على الرسومات أو الرسوم البيانية، أو تكون نماذج كلامية تعتمد على الوصف اللفظي.

تستخدم النماذج في مجموعة متنوعة من المجالات، بما في ذلك العلوم الطبيعية، والهندسة، وعلم النفس، والاقتصاد، والبيئة، والعديد من المجالات الأخرى. تساعد النماذج في فهم كيفية عمل الأنظمة والظواهر المعقدة، وتوفر وسيلة لاختبار فرضيات واستنتاجات، وتقديم توجيه لاتخاذ القرارات.

في علم النفس وعلوم السلوك، تستخدم النماذج لفهم سلوك الإنسان وعمليات العقل البشري. مثلاً، يمكن استخدام نماذج عقلية لشرح كيف يتعلم الفرد وكيف يتفاعل مع البيئة المحيطة به. النماذج في هذا السياق يمكن أن تكون تمثيلات نظرية لعمليات معرفية مثل التعلم، واتخاذ القرار، وتكوين التمثيلات العقلية، والمزيد.

بشكل عام، النمذجة تمثل أداة قوية لفهم ودراسة الظواهر المعقدة والأنظمة المختلفة في مجموعة متنوعة من التخصصات العلمية والعلوم الاجتماعية.